محادثة (١)

بين الأسد البريطانى والدب الروسى

الأسد : — قل لى أيها الدب ! لماذا هذا التناقض الظاهر الذى يلحظه الناس بين آرائك وسلوكك السياسى ؟ فحين بدأتم ثورتكم الكبرى استنكرتم سياسة القياصرة القديمة ، ونددتم بخطط التوسع تنديداً أدى بكم إلى التبرؤ من المعاهدات التى كانت فى مصلحتكم ، كمعاهدة لندن السرية التى عقدناها معاً فى سنة ١٩١٥ وتعاهدنا فيها على أن تكون القسطنطينية ومنطقة المضايق من نصيبكم متى انتهت الحرب بهزيمة الوحش وزميله الذئب التركى ؛ فقد فضحتم حينذاك سر المعاهدة ، وأعلنتم زهدكم فى شروطها ، وكسبتم بذلك صداقة الذئب . وفعلتم مثل ذلك فى بلاد الفرس ، فنزلتم عن منطقة نفوذكم وعن امتيازاتكم فيها ، وقدمتم مؤسساتكم ومهماتكم هدية منكم للشعب الإيرانى . ثم ما هى إلا بضع سنوات حتى تنكرتم لمبادئكم تلك ، وبعثتم السياسة القيصرية القديمة من مرقدها ، وأصبحت سياستكم الخارجية ، سواء فى البحر المتوسط والمضايق أو فى شبه جزيرة البلقان أو فى خليج فارس أو فى غرب آسيا والمحيط الهادئ صورة طبق الأصل من سياسة التوسع التى كانت تسير عليها الحكومات الأوتقراطية فى عهد القياصرة .

الدب : — وما دخل مبادئ الثورة فى السياسة الخارجية للدولة ؟ إن من الحق أن تؤثر الآراء الثورية فى سياسة الأمة الداخلية ، فتصدر التشريعات وتسن القوانين مشربة بالآراء الحديثة . أما فى السياسة الخارجية فإن الاعتبارات الجغرافية والتاريخية الثابتة هى التى تتحكم فى توجيهها مهما كان لون الحكومة القائمة بالأمر قيصرية كانت أو بلشفية . . .

---

(١) الكاتب المصرى عدد ١١ (أغسطس ١٩٤٦) .

وهل تأثرت سياستكم الخارجية بتقلد العمال زمام الحكم بعد المحافظين ؟ إن الخطوط الرئيسية لسياسة العمال الخارجية هى نفس الخطوط التى رسمها تشرشل والمحافظون ، وإن اختلفت طرق تنفيذها والتفاصيل التى تشتمل عليها. وكذلك الحال فى روسيا وفى سائر البلاد العريقة فى تاريخها وتقاليدها — لا مندوحة لها عن التأثر بحقائق تاريخها وجغرافيتها . فمن الحقائق الجغرافية مثلا التى تسيطر على سياسة روسيا الخارجية مهما تغيرت نظم الحكم فيها ، أنها بلاد توشك أن تكون مغلقة ، بسبب تجمد مياه البحار المحيطة بها فى معظم شهور السنة ؛ ولذلك تراها دائبة السعى للوصول إلى منافذ تطل منها على الخارج وتيسر لها الاتصال بالمناطق الدافئة النشيطة فى تجارتها الغنية بمواردها . ومن الحقائق التاريخية التى تمتزج بدماء الروس ولا تنفك مسيطرة على أذهانهم ، أن هناك شعوبا فى البلقان تنتمى إلى الجنس السلافى أو الصقلبى الذى تنتسب إليه روسيا . وما فتئ الروس طوال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين يعطفون على تلك الشعوب ويدربونها ويمكنون لها حتى تخلصت من نير الأتراك ، ثم اطرد نموها وكمل استقلالها ، وباتت روسيا تعتقد أن من حقها على تلك الشعوب أن تخصها بمكانة تمتاز بها على سائر الدول .

وإذا كان دعم الثورة قد استدعى فى أول الأمر أن نركز جهودنا فى سياستنا الداخلية ، وأن نعتصم بالأناة والصبر إزاء ما فرضته علينا الدول من قطيعة وطرد وحرمان ، فإننا لم نر بدًّا من أن نطرق باب الشرق مادام الغرب قد أوصد أبوابه دوننا ؛ فعقدنا معاهدات الصداقة وحسن الجوار مع تركيا وإيران وأفغانستان . ولما لم تقبلونا أو تدعونا معكم فى عصبة الأمم ، تفاهمنا مع الوحش المنهزم ، واتسعت مسافة الخلف بيننا وبينكم ، إلى أن اكفهر الجو فى أوربا وتلبدت سحب الحرب الأخيرة . فلجأتم إلينا ولكن بعد ضياع الوقت

الأسد : — إذا كانت حقائق التاريخ والجغرافية هى التى تملى عليكم سياستكم الخارجية ، فما معنى المشاكل التى تثيرونها فى إيران والبلقان والمضايق وفى تريستة ومستعمرات إيطاليا القديمة ؟ وأى اعتبارات جغرافية أو تاريخية تدعوكم إلى التدخل فى شؤون دولتين مستقلتين كإيران وتركيا ، أو إلى المطالبة بضم طرابلس أو جزر الدوديكانيز ؟ فهل كان أهل إيران وتركيا من العنصر السلافى

الأرثوذكس ؟ وهل كانت جزر الدوديكانيز واقعة فى البحر البلطى أو هى لاتزال قائمة ، كما تعلّم المدارس تلاميذها ، فى شرقى البحر المتوسط ، فليس يهم أمرها سوى اليونان ؟ وكيف انقلب الذئب التركى فجأة إلى وحش مخيف ، فأخذتم منذ انتهينا من الوحش تحاولون الانقضاض عليه ظلماً وعدواناً بعد أن صادقتموه فى بدء ثورتكم ، ودافعتم عن مصالحه فى وجه الدول جميعاً ؟

الدب : — من الاعتبارات الجغرافية التى تتحكم فى توجيه السياسة الخارجية لدولة ما ، المواقع والنقط الاستراتيجية التى يتوقف عليها تأمين حدودها وسلامتها من العدوان . وبلادنا كما تعلم بلاد مترامية الأطراف ، إذا تهاونا فى حماية حدودها من الخارج انهار البناء كله من الداخل ؛ إذ لابد من أن يطمئن الشعب داخل حدوده حتى يستطيع أن يتفرغ للنهوض ببلاده . ونحن شعب حديث العهد بالحرية ، ولابد له من الاستقرار حتى يتعلم ويتدرب ويتقدم . وأنّى يتهيأ لنا الاستقرار إذا كنا فى الجنوب تحت رحمة تركيا : إن شاءت فتحت لنا المضايق وإن شاءت أغلقتها فى وجهنا وحبست عنا تجارة البحر المتوسط ؟ ومن أين لنا الأمان والسلامة وفى الجنوب الشرقى بركان من الأكراد لايهدأ ثورانه وإنما يخضع هؤلاء الأكراد لإيران والعراق وتركيا ؟ وكيف يهدأ لنا بال وفى الشمال الشرقى إقليم قارص وأردهان وأرتيڤان وقد كان داخلا فى حدود أرمينيا السوڤيتية قبل سنة ١٩١٩ وهو إقليم على جانب عظيم من الأهمية الحربية ؛ لأنه يتحكم فى الطريق إلى القوقاز ؟ أما من ناحية الغرب فقد أخذنا أمورنا بأيدينا ، وضممنا ولايات البلطيق كما كانت قبل الحرب العالمية الأولى ، وأخذنا من بولندة وفنلندة أراضى كانت لنا فى الماضى أيضاً . ولو أنها بقيت فى أيدى غيرنا لتعرضت حدودنا الغربية للخطر .

ولا تنس أن الوحش قد هاجمنا مخترقا هذه الحدود مرتين فى مدى خمس وعشرين سنة ، وقد ذقنا من أهوال الحرب فى المرتين ألوانا لم ير العالم مثلها ، وقد راح ضحيتها ملايين من الشبان فضلا عن الخسائر المادية التى منيت بها البلاد . وإنه لإجرام فى حق الوطن أن نتساهل فى أمر قد نتعرض بسببه لهجوم ثالث قد لانقوى على احتماله مرة أخرى .

الأسد : — ولكن تأمين الحدود ياصديقى يجب أن يكون من مهمة مجلس الأمن فى هيئة الأمم المتحدة التى تضافرت جهودنا على إنشائها ، وبذلك يصبح التأمين عامًّا يصون السلم فى جميع الأرجاء . أما أن يكون التأمين مهمة فردية تتولاها كل دولة وفق مصلحتها الخاصة ، فإن مثل هذا التصرف لايلبث أن يؤدى إلى التنافس الحربى ، ومن ثم يكون سبباً إلى حرب عالمية ثالثة . وكما أن الحرب لاتتجزأ : إذا نشبت فى إقليم اندلعت منها شرارات الحرب العامة سريعاً ، فكذلك السلم يجب ألا تتجزأ حتى ينتشر لواؤها على العالم أجمع . ثم لماذا تخشون الوحش وقد تقطعت أوصاله وانهد بنيانه ! وأكبر الظن أنه لن تقوم له قائمة إلا بعد أجيال ، وبعد أن يكون العالم قد تطهر من أدران الحرب واتخذ عدته لإبادة جرثومتها . لابد أن يكون فى الأمر خبىء تعملون على كتمانه ، وإلا فضدّ من تريدون هذه التأمينات ، وتقيمون هذه التحصينات ؟

الدب : — إن أمرك أيها الأسد لغريب حقًّا . تسألنى ضد من هذه التأمينات وأنت لذى ابتدعت النقط والقواعد الاستراتيجية ، واستمسكت بالمناطق والشرايين الحيوية ، ووضعت يدك على مفاتيح أهم المنافذ البحرية فى العالم ! ألست أنت المتسلط فى البحر المتوسط بقواعدك فى جبل طارق ومالطة وقبرص وفلسطين وقناة السويس وعدن ، فضلا عما بيدك من أملاك وجزر وقواعد فى سائر أركان المعمورة ، وكل هذا لتأمين طريقك إلى أملاكك الواسعة . . . فلماذا تبيح لنفسك ما تأباه على غيرك ؟ ألم يعلن ابن عمك الأمريكى أمام الملأ فى أثناء الحربين العالميتين أن فى مقدمة أغراضكم من الحرب إعلان حرية البحار ، ولاتزال مع ذلك مفاتيح البحار فى أيديكم إلى الآن !

الأسد : — إن لنا ظروفا خاصة لا إخال دولة أخرى فى العالم تشاركنا فيها ؛ إذ لايخفى عليك أننا نسكن جزيرة صغيرة لاتبلغ جزءاً من مائة من مساحة بلادكم ، وقد اجتزنا مرحلة الزراعة منذ ظهور حركة الانقلاب الصناعى فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وأصبح أساس ثروتنا الصناعة والتجارة ، وجل اعتمادنا فى غذائنا وخاماتنا على مايرد إلينا من أنحاء الإمبراطورية ومن الخارج ، لذلك نعتبر أسطولنا الحربى والتجارى خط دفاعنا الأول ؛ فإذا لم نحتفظ بتفوقنا فى

البحار تعذر علينا ضمان سلامة اتصالنا بأملاكنا وبالعالم الخارجى ، وأعوزتنا الخامات والأغذية ، وتعرَّض أطفالنا وأسرنا لخطر الجوع والحرمان .

هذا هو الفرق بينى وبينك وبينى وبين ابن عمى : كلا كما فى غنًى نسبى عن العالم الخارجى ؛ فلديكما الكفاية من موارد الخامات والأغذية ، وقد حبتكما الطبيعة بإنتاج وافر من مادة زيت البترول الذى يعتبر بحق عصب النشاط الاقتصادى والحربى ، فأنتم تنتجون منه مقدار ٦ر١٠ ٪ من إنتاج العالم . وأما الولايات المتحدة فتنتج ٣ر٦١ ٪ منه ، وهى ميزة لكما تفوق كل تقدير وتتيح لكما أن تنتهجا فى سياستكما خطة العزلة عن مجموعة الدول حين يبدو لكما . واما نحن فنعيش عالة على غيرنا ؛ إذ نستورد من الخارج كل حاجتنا من زيت البترول اللهم إلا نسبة ضئيلة تنتجها كندا والهند . حتى زميلنا الديك الفرنسى يستطيع أن يعيش على موارده الخاصة وإنتاج أملاكه القريبة منه دون أن يتعرض للخطر مثلنا . من ذلك ترى أيها الصديق أن القوة البحرية وما يتبعها من قواعد البحرية هى مسألة حياة أو موت بالنسبة إلينا ، وفى اليوم الذى نتخلى فيه عن قواعدنا ونقطنا الاستراتيجية فى عرض البحار نكون قد نزلنا عن مكانتنا كدولة عظمى ، وأنكرنا تاريخنا وتقاليدنا ، وغمطنا حق ذرارينا وأسلافنا وبالاختصار نكون قد انتحرنا .

الدب : — لست أظن أن العالم يخسر كثيراً بذهابكم ، فقد انتهى زمانكم وأديتم رسالتكم على قدر ما سمحت به ظروف الجهل والفقر والضعف التى كانت تسيطر على العالم فى أثناء تفوقكم . وكفاكم أنكم أدخلتم النظم الديمقراطية النيابية فى بلاد العالم ، فأشعتم فيها الخلافات الداخلية ، وساعدتم على الفرقة والتنافر والتناحر الحزبى بين أبناء الوطن الواحد ، بقصد الوصول إلى كراسى الحكم وتأليف الوزارات التى ابتدعتموها . كفاكم أنكم جعلتم الشاى شراباً عالميا ، ولعب الفوتبول رياضة أممية ! وستذكر لكم الأجيال المقبلة حروبكم وما بذلتم من جهد فى سبيل استعمار إيرلندة والهند وأمريكا وإفريقية ، وفرض رقابتكم على البحار فى الحرب والسلم . أما الآن وقد فتحت الكشوف العلمية الهائلة آفاقا جديدة لحياة جديدة مليئة بالنذر والاحتمالات ، فإن هذه الحياة تتطلب دما جديداً ودروساً جديدة يقوم بها أساتذة مدربون تدريباً جديداً

فى مدارس غير مدارسكم ، ووفق آراء وفلسفات غير آرائكم وفلسفاتكم .

الأسد : — قال القدماء أو المحدثون — لا أدرى — إن من لا يتطور يتقهقر. والسر فى بقاء فصيلتنا إلى الآن أننا نطبق نظرية التطور فى جميع نظمنا وآرائنا السياسية والاقتصادية حتى الاستعمارية . وأحسب أنك تعلم أن مستعمراتنا وأملاكنا فى عرض البحار قد أصبحت مع التطور دولا مستقلة شكلا وموضوعا ، حتى إن بعضها قد قرر فى الحرب الأخيرة أن يلزم الحيدة ، ولو شئنا لأرغمناها على دخولها إلى جانبنا ، ولكننا آثرنا حرية الرأى على مصلحتنا الخاصة . وما مثل جنوب إفريقية فى أول الحرب وإيرلندة طوال مدة الحرب ببعيد . وإننا لنباهى بأننا منذ القرن التاسع عشر وإلى الآن لم نزل ندافع عن حقوق الشعوب الصغيرة ، ونرعى مصالحها ضد قوى الاستبداد والرجعية ، فساعدنا على ظهور قوميات مستقلة جديدة تتمثل فى جمهوريات أمريكا وفى اليونان وبلجيكا وفى الشرق الأوسط . وأظن أن العالم سيذكر لنا جهودنا فى سبيل تحرير الرقيق ، وتكوين جمعيات الصليب الأحمر ، وتحرير المرأة ، ونظام الكشافة ، وحرية التجارة ، وحتى الانتخاب العام . وما دمنا مؤمنين بنظرية التطور والحرية ، فإن بريطانيا لن تموت ، وسترى أيها الرفيق أن العالم لن يفيد من الثورة والعنف بقدر ما يفيد من الحرية مع التدرج والتطور .

الدب : — إنى أمقت التباطؤ والتدرج ، وأدين بالثورة التى خلقت روسيا الجديدة ، وأعتقد أن النظام الديمقراطى بما ينطوى عليه من تراخ وضعف وتمييز بين الطبقات هو سبب ما يعانيه العالم الآن من قلاقل واضطرابات .

دعنى أنفذ برنامج الثورة الشيوعية الدولية ، وسترى كيف يبرأ العالم من أدوائه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية جميعا

الأسد : — إنى أعتقد أن التطور هو النظام الطبيعى ، فالثمرة لا تنضج فى يوم وليلة ، بل لا بد لها من تربة صالحة وري وغذاء وتقليم وتشذيب وتطعيم وتدخين حتى تطيب وتتدانى للآكلين . أما الثورة فظاهرة شاذة تقذف بالشعوب فى ألوف من التجارب والانقلابات العنيفة الدامية القاسية ، ثم

لا تلبث فورة الثورة أن تخمد ويعقبها رد فعل طويل من الضعف والإنهاك والإخلاد إلى التواكل والقناعة. قد تكون الثورات السياسية ضرورة طبيعية فى عصور الاستبداد والتسلط القديم. أما فى هذا العالم الجديد الذى يجب أن تتمتع فيه الشعوب باستقلالها والأفراد بحريتها فى حدود القانون — فنحن فى حاجة إلى ثورة من نوع آخر فى البحوث العلمية والاكتشافات الآلية الجديدة التى لا يقتصر تطبيقها على عتاد الحرب، بل يجب استغلالها لرفع مستوى البشر ولمصلحة الطبقات جميعاً لا لمصلحة طبقة دون أخرى. ولا أمل فى تحقيق ذلك إلا إذا تعاونت الشعوب، وأمنت العدوان عليها، ونعمت بكامل حريتها وسيادتها فى الداخل والخارج.

الدب: — هذه مجرد نظريات تتشدق بها.

الأسد: — كذلك كان الطيران مثلا، وكان التسامح الدينى، وكانت القنبلة الذرية — كلها كانت مجرد نظريات فى أول أمرها ثم أصبحت بالممارسة والتجربة حقيقة يفيد منها العالم أجزل الفوائد.

الدب: — وكيف توفق بين فكرة الاتحاد العالمى الذى تنشده وتمسك الدول بكامل حريتها وسيادتها؟

الأسد: — أريد أن يكون الاتحاد العالمى لمنع الحروب، وتيسير المواصلات والتجارة، ونشر الصحة والثقافة، وتوفير العمل بين شعوب العالم. أما فى الشؤون الداخلية، وحق الملكية، وحرية العبادة والتعبير، واختيار نوع الحكم، فنريد حرية كاملة فى حدود القانون دائما وسيادة تامة بحيث لا تتدخل دولة فى شؤون دولة أخرى. ولا يتحقق كل هذا — كما ذكرت لك — إلا بالتعاون واحترام الحريات.

الدب: — ألست عضواً متعاوناً معكم فى هيئة الأمم المتحدة وفى مجلس الأمن؟

الأسد : — حقًّا نحن جميعاً أعضاء ، ولكننا غير متساوين مع الآخرين . وأساس التعاون المساواة ، فإذا انتفت زالت الثقة وحلت مكانها الريب والظنون . وقد تذرعنا بحقنا كمحاربين غالبين فى الحرب الأخيرة ، وتمسكنا نحن الخمسة الكبار بحق الإجماع فى التصويت بيننا ، وانبنى على ذلك أن واحداً منا نحن الخمسة يستطيع أن يحول دون تنفيذ أى قرار يتخذه مجلس الأمن أو الجمعية العمومية للأمم المتحدة مهما عظم أمره ومهما بلغت الكثرة فى جانبه . وقد أثبتت الظروف أننا كنا على خطأ فيما قررنا ، فإننا بذلك قد فتحنا هوة عميقة بيننا وبين أمم العالم جميعاً . ويدهشنى أنكم تناهضون مبدأ المساواة بين الدول على حين تحض ثورتكم على المساواة بين الجميع .

إن مبدأ احترام المساواة يقتضينا أن نتزل عن حق « الڤيتو » ، وأن نؤمن بحق الكثرة . فإذا لم نتزل عن هذا الحق الذى اغتصبناه لأنفسنا فلا مندوحة لنا من أن نعمل على كسب الأصوات بالحق وبالباطل ، وقد تؤدى بنا الحال إلى بعث قوة الوحش من جديد ليكسبه واحد منا إلى جانبه ، وحينئذ تتحقق نبوءة هتلر حين قال إنه إذا ذهب ، فإن الديمقراطية والبلشفية لا تلبثان أن تصطرعا ، وفى اصطراعهما فرصة ألمانيا وبعث للنازية من جديد . فلنكن على حذر . وأولى لنا أن نتفق ، ولا يصح أن يلدغ أحدنا من جحر أكثر من مرتين !

الدب : — كفى ! إنك تحاضرنى ! وما كنت أظن أن محادثتنا ستنقلب سريعاً إلى محاضرة من جانب واحد . فإلى اللقاء عند ما يعود مولوتوف من الغابة .

محمد رفعت